قراءة تداولية معرفية لمنتخبات من مجمع الأمثال للميداني

عائشة هديم
أستاذ محاضر / جامعة بومرداس / كلية الآداب واللغات بودواو
aichahadim2020@gmail.com

الملخـــص

يقدم هذا البحث قراءة جديدة للمثل، بالاستناد إلى نظرية تعتبر الآن من النظريات العلمية الرصينة في تحليل الظواهر، وهي: الرؤيا المعرفية ، وتقوم هذه الرؤيا على مبدأ فهم ميكانيزمات عمل الذهن عموما وعمل اللغة خصوصا، باعتبارها القمينة بفهم الظواهر الإنسانية.

تأسيسا على ذلك اخترت هذه الرؤيا لمقاربة المثل باعتباره ظاهرة أدبية مركزية في جميع الثقافات، وفي ثقافتنا العربية خصوصا، منتقية مجموعة من الأمثال العربية القديمة ، هادفة إلى الكشف عن آليات اشتغالها، والمعرفة التي تقدمها لنا، والتداولية العالية التي تتمتع بها، مستعينة بنظرية الملاءمة للأنثربولوجي الفرنسي اللامع : « دان سبربر، واللسانية البريطانية المتميزة : « دايدر ويلسن « . مستثمرة لإجراءاتها ومفاهيمها النظرية الجادة لاسيما: التمثلات المادية ، والتمثلات الذهنية، و السلاسل السببية، و الاقتضاءات السياقية.

الكلمات المفتاحية: المثل، نظرية الملاءمة، التمثلات المادية، التمثلات الذهنية، السلاسل السببية، الاقتضاءات السياقية.

Abstract

This research presents a new reading of proverbs, according to a vision that is nowadays considered as one of the judicious theoretical visions in analyzing phenomena, namely: the cognitive vision. It is based on the principle of understanding the mechanics of how mind works in general and how language functions in particular, as it is the basis for understanding human phenomena. Relaying on these principles, we chose this vision to study proverbs as they are a central literary phenomenon in all cultures, notably in our Arabic culture. We selected a collection of ancient Arab proverbs in view of revealing their functioning mechanisms, the knowledge they provide and the pragmatics they embody, drawing on the theory of relevance, and using its judicious procedures and concepts especially: physical representations, mental representations.

Key words: proverbs, relevance theory, physical representations, mental representations, causal chains, contextual implications.

تاريخ الإستلام: ٢٠٢١/٣/٨ تاريخ القبول: ٢٠٢١/٩/١٩

مقدمة

يسعى هذا المقال إلى تقديم قراءة لمجموعة من الأمثال العربية القديمة ، متبنيا رؤيا معرفية تستند إلى مقولات نظرية الملاءمة التي وضعها العالم الأنثربولوجي الفرنسي : «دان سبربر» رفقة اللسانية البريطانية : «دايدر ويلسن». نوطئ القراءة بعرض بتعريف المثل ، بغية الإحاطة بمختلف أبعاده ، ثم ننتقل إلى الرؤيا المنهجية المتبناة ، لنلج إلى الأمثال المختارة ، ونختم الدراسة بعرض النتائج المتوصل إليها .

1/ المثل : الماهية والطبيعة

يقول المبرد في تعريفه للمثل: « المثل مأخوذ من المثال ، وهو قول سائر يُشَبّهُ به حال الثاني بالأول ، والأصل فيه التشبيه ، فقولهم: « مَثَلَ بين يديه» إذا انتصب ، معناه أَشْبَهَ الصورة المنتصبة ، وفلان أَمْثَلُ من فلان أي أشبه بالصورة المنتصبة، و» فلان أمثل من فلان» أي أشبه بما له من الفضل ، والمثال القصاص لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول، فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول ، كقول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها إلا الأباطيل.

فمواعيد عرقوب عَلَم لكل ما لا يصح من المواعيد (الميداني ، 1987، 07).

2/ أبعاد المثل:

يقدم تعريف «المبرد» ثلاثة أبعاد جوهرية للمثل:

2-1/ البعد البلاغي:

حيث تحيل المادة اللغوية: (م.ث.ل) إلى التشبيه ، وهو الكنه البلاغي للمثل، وقد خص « إبراهيم النظام « هذا البعد بعناية ، حيث جمع خصائص المثل في أربع :

1/ إيجاز اللفظ .

2/ إصابة المعنى.

3/ حسن التشبيه.

4/ جودة الكناية.

هذه الخصائص الأربع رشحت المثل ليكون في نهاية البلاغة (الميداني ، 1987، 08-07).

يحضر هذا البعد البلاغي بقوة في تعريفات اللغويين والنقاد والأدباء للمثل ، فهذا «ابن المقفع» يستحضر البعد البلاغي (الموسيقي) للمثل ، فيجعله آنق للسمع (الميداني ، 1987، 05) ، وجعله «ابن عبد ربه» ندا للشعر والخطابة ، بل أفضل منهما ، حيث اعتبره أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة (ابن عبد ربه 1982، 63)، والمثل - كما يذهب إليه «أبو هلال العسكري» - أجل الكلام ، وأنبله ، وأفضله ، وذلك بسبب خاصيتين مترابطتين يتميز بهما المثل : قلة اللفظ ، وكثرة المعنى (أبو هلال العسكري، 1310 ه ، 03) .

2-2/ البعد التداولي:

إن المثل قول سائر : أي ينتشر بين الناس ويُتَدَاوَلُ، و هذا البعد مكين في المثل ، فهو - حسب « ابن عبد

ربـه» – أكثـر الأجنـاس مسـيرا وتـداولا. يقـول : « لـم يسـر شـيء مسـيرها ولا عـم عمومهـا» (ابـن عبـد ربـه 1982، 63

إنه بعبارة « المرزوقي» يتسم بالقبول ، ويشتهر بالتداول» (السيوطي ، د. ت ، ج01، ص 456).

و يرتبط هـذا البعـد بمقولـة السـياق ، فالأمثـال تخـرج في أوقـات مخصوصـة ، كمـا يشـير إلـى ذلـك « أبـو هـلال العسـكري» (أبـو هـلال العسـكري ، 1310ه ، 03). إن المثل في حقيقته التداولية خاضع لثنائية يُنْتَجُ وفقها : المورد ، والمضرب . أما المورد : فهو الموقف الذي صدر عنـه أول مـرة قيـل فيهـا ، وأمـا المضـرب : فهـو السـياق الـذي أعيـد إنتاجـه مـن خلالـه (بورايـو ، 2007، 59).

ويبـدو أن هـذه الفعاليـة التداوليـة : « إعـادة الإنتـاج « قويـة ومكينـة في المثـل ، فعلـى الرغـم مـن أن أغلـب الأمثـال فقـدت أصـل وضعهـا ، أو القصـص المفسِّـرة لأصل وضعها - بسبب طبيعة التداول الشفوي- فإنها بقيـت حيـة (بورايـو ، 2007، 59).

إن المثـل - بتعبيـر « نبيلـة إبراهيـم»- يجعلنـا نعيـش التجربـة مـرة أخـرى. تقـول في هـذا المعنـى : « ...فالتعبير في خاتمـة التجربـة معنـاه رجـوع بهـا إلـى الـوراء حتـى بدايتها ، أي أننـا نعيشـها مـرة أخـرى « (بورايـو ، 2007، 65).

إن المثـل يخضـع لسـيرورة تداوليـة ، تبـدأ بالاختـراع الفـردي ، إلـى القبـول الجماعـي ، إلـى الإشـاعة ، إلـى التعديل وصولا إلى القبول مرة أخرى. هـذه السـيرورة يشـرحها « زايلـر» بدقـة في قولـه : « إن الشـعب باعتبـاره جمعـا لا يخلـق شـيئا . إن كل خلـق وكل اختـراع وكل اكتشـاف يصـدر عـن شـخص فـرد ، ولا بـد أن يكـون كل مثـل قـد تم التصريـح بـه قبـل كل شـيء ذات يـوم وفي موضـع مـا، وبعـد أن يلقـى هـوى في نفـوس مـن يسـمعونه ، يقومـون بإشـاعته كقـول مَثَلِي، ولا شـك أنـه تعـرض فيمـا بعـد للتعديـل والتغييـر إلـى أن أصبـح ذا شـكل مقبـول عنـد الجميـع ، وهكـذا يكـون قـد أصبـح مثـلا معترفـا بـه مـن طـرف الـكل « بورايـو ، 2007، 64).

هـذه السـيرورة التـي شـرحها « زايلـر» تنيـط بالمثـل وظيفـة ثقافيـة اجتماعيـة ، وهـي الإسـهام في اسـتمرار الثقافـة (مصطفـى ، العشـماوي ، د.ت، 130).

3-2/ البعد الذهني

هـذا البعـد حاضـر في هـذا التعريـف الـذي يسـوقه «الميدانـي»، دون تحديـد قائلـه ، حيـث يقـول : « ...وقـال غيرهمـا- يقصـد غيـر « المبـرد» ، و» ابـن السـكيت» – ، سـميت الحِكَـم القائـم صدقهـا في العقـول أمثـالا لانتصـاب صورهـا في العقـول ، مشـتقة مـن المثـول الـذي هـو الانتصـاب».(الميدانـي، 1987 ، 07).

4-2/ البعد الأجناسي

يسـتوعب المثـل أيضـا بعـدا آخـر يجعلـه متميـزا في طبيعتـه عـن الأجنـاس الأدبيـة الأخـرى، فالمثـل جامـع لـكل أجنـاس الأدب. إنـه بعبـارة « ابـن المقفـع» أوسـع لشـعوب الحديـث (الميدانـي ، 1987، 05)، وبعبـارة « أبـي هـلال العسـكري» يتصـرف في أكثـر وجـوه الـكلام ، ويدخـل في جـل أسـاليب القـول (أبـو هـلال العسـكري، 1310 ه ، 03)

هـذه الأبعـاد التـي أتينـا علـى ذكرهـا في الصفحـات

السابقة ، تنصهر في عبارة دقيقة جامعة يقولها» المرزوقي « : «تنتقل - يقصد الأمثال- عما وردت فيه إلى كُلِّ ما يصح قَصْدُهُ بها (السيوطي ، د. ت ، 456) ، وعبارة لا تقل عنها دقة وعمقا يقولها «العسكري» : « فهي من أجل الكلام وأنبله وأشرفه وأفضله ، لقلة ألفاظها وكثرة معانيها ، ويسر مؤونتها على المتكلم من كثير عنايتها وجسيم عائداتها» (أبو هلال العسكري، 1310 ه ، 03).

هاتان العبارتان تترجمان مبدأ يتمتع به المثل بقوة هو مبدأ : « الملاءمة « - كما سنرى في حينه.

3/ المنهج والرؤيا

يتبنى هذا البحث رؤيا تداولية معرفية ، حيث نُرجِع كل الخواص السابقة الذكر إلى بعد تنصهر فيه هو البعد المعرفي، وتتيح لنا التداولية المعرفية ، كما صاغ مقولاتها :» دان سبربر» في نظرية الملاءمة ، الإحاطة بهذا البعد وتفسير فعالية المثل الإبداعية.

ينطلق البعد المعرفي من الصورة التي يقدمها المثل في شكل تشبيه ، الذي يعود في التفسير المعرفي إلى صهر تمثلين ذهنيين لواقعتين في تمثل ذهني واحد ، حيث تتدعم فكرة بفكرة ، وفرضية بفرضية أخرى ، وينتج سياق أوسع وملاءمة أقوى، على أن العلاقة بين طرفي الصورة ليست المطابقة التامة كما في التصور الكلاسيكي للصورة بل المشابهة في بعض الاقتضاءات السياقية.

إذ يرى « سبربر» و « ويلسن « أن المعاني الحرفية والاستعارية تتحدد قياسا على الفكرة التي يريد القائل تبليغها فبحسب درجة المشابهة بين الفكرة والقول ، يقترب من الاستعمال الحرفي أو يبتعد عنه ، وتكون درجة المشابهة رهينة بعدد الاستلزامات التي يثيرها الشكل القضوي للقول والفكرة عندما يتقابلان في السياق نفسه (روبول ، موشلار ، 2003، 183- 184).

إن الاستعمالات الحرفية ، مثلها مثل الاستعمالات التقريبية والاستعارات الشعرية ، في كل هذه الحالات يجب على المستمع أن يفترض أن المتكلم يتحمل مجموعا بعينه من اقتضاءات القضية المعبر عنها (Wilson , Sperber, 2004,238)

3-1/ حركية المثل الذهنية والتداولية

ينتقل المثل من فرد لآخر في شكل تمثل مادي (أي في صيغته اللغوية) ، وهذا التمثل المادي : (الشكل) ينتج تمثلا ذهنيا ، وهو بدوره ينتج تمثلا ماديا مرة أخرى ، وهكذا دواليك ضمن سلسلة سببية ثقافية ، تضمن استمرارية المثل.

ضمن هذه الحركة الجدلية يثرى المثل بخصائص أسلوبية قوية تزيد من قوة خصائصه الذهنية والتداولية: الانتصاب في الذهن ، و سير المثل ، ثم إن هذه الخصائص الذهنية والتداولية تعود لتؤثر في الخصائص الأسلوبية وهكذا. كما يثرى البعد الأجناسي ، حيث يستوعب المثل أجناسا أخرى يحاكيها أو يتعالى عليها لتستمر فعاليته الأسلوبية التداولية ، فينتج سياقات جديدة ، وأشكالا جديدة للسرد ، وينتج ملاءمته القصوى.

هذه الرؤيا التي استعرضنا خطوطها العريضة ، تستند إلى مفاهيم نظرية الملاءمة . فما المقصود بالملاءمة ؟

3-2/ مفهوم الملاءمة

3-2-1/ مبدأ الملاءمة

يقوم هذا المبدأ على فكرة مفادها أن : كل فعل تواصل إشاري يُبلِّغ افتراض ملاءمته القصوى (Wilson, Sperber, 1989, 237)

3-2-2/ شروط الملاءمة

يصوغ «سبربر» شرطين لملاءمة المعلومة

الشرط 01: يجب أن يكون للمعلومة آثار سياقية.

الشرط 02: كلما كانت الآثار السياقية كبيرة ، كلما كانت الملاءمة كبيرة.(Wilson, Sperber,1989, 182)

3-2-3/ درجات الملاءمة

يضيف « سبربر» إلى معيار الآثار السياقية ، معيار الجهد المبذول لمعالجة المعلومات للحصول على آثار سياقية، فكلما كان الجهد المبذول لمعالجة المعلومات كبيرا ، كلما كانت الملاءمة ضعيفة (Wilson, Sperber,1989, 18)

3-2-4/ الملاءمة والسياق

يقدم «سبربر» وجهة نظر مختلفة للسياق ، فالسياق عنده ليس محددا مسبقا ، إنه مفتوح على خيارات وعلى مراجعات على امتداد سيرورة الفهم (Wilson, Sperber,1989,208) إن السياق مختار ، ويتحدد هذا الاختيار من جهة من خلال مضمون الذاكرة العامة قصيرة المدى ، و الذاكرة الموسوعية ، ومن جهة أخرى من خلال المعلومة المدركة فوريا في المحيط الفيزيائي. وكل هذه العوامل لا تحدد سياقا واحدا ، ولكن جملة من السياقات الممكنة ، وما يحدد سياقا دون آخر هو مبدأ الملاءمة (Wilson, Sperber,1989,214).

3-3/ تمثل العقل للعالم

يذهب «سبربر » إلى أن العقل يمكن أن يعالج التمثلات بوصفها فرضيات، وهذه الفرضيات التي تعالج باعتبارها وصفا حقيقيا للعالم، ولكنها ليست ممثلة بصراحة، تسمى بالفرضيات الواقعية.

3-3-1/ شكل الفرضيات

تتكون الأشكال القضوية للفرضيات من عناصر هي :المفاهيم، ومن ثم فالفرضية مجموع منظم من المفاهيم،).Wilson, Sperber,1989, و هي: موضوعات نفسية ينظر إليها في مستوى معين من التجربة (135

و المفهوم من وجهة نظر شكلية عبارة عن عنوان له وظيفتان مختلفتان ومتكاملتان:

- الوظيفة 01: المفهوم :عنوان في الذاكرة حيث نجد فيه معلومات مختلفة محفوظة.

- الوظيفة 02: العنوان : مكون لشكل منطقي ، حيث يكون حضوره عاملا مساعدا لتطبيق قواعد استنباطية خاصة.

أما المعلومات التي يمكن أن تندرج ضمن عنوان

مفهومي فهي على ثلاثة أنواع :

-1 المعلومات أو المداخل المنطقية .

-2 المعلومات أو المداخل الموسوعية.

-3 المعلومات أو المداخل المعجمية.

1/ المدخل المنطقي

هو مجموع قواعد استنباطية تُوصِّف مدخلا يتكون من مقدمة أو مقدمتين ومخرج يتكون من نتيجة.

2/ المدخل الموسوعي

يحوي معلومات حول امتداد المعنى الحقيقي للمفهوم ودلالته، أي حول الأشياء أو الأحداث أو الخصائص التي تنضوي تحت هذا المفهوم. مثال ذلك : المدخل الموسوعي للمفهوم : نابوليون يحتوي مجموعة من المفاهيم حول نابوليون.

3/المدخل المعجمي

يحوي معلومات حول التعبير اللساني للمفهوم، أي حول اللفظ أو التركيب الذي يعبر عن المفهوم.

4/ المدونة المختارة

المثل 01: إن لله جنودا منها العسل. قاله معاوية لما سمع أن الأشتر سقي عسلا فيه سم فمات. يضرب عند الشماتة بما يصيب العدو (الميداني ، 1987، 16).

المثل 02: أَصُوص عليها صوص.

الأصوص : الناقة الحائل السمينة ، والصوص : اللئيم، قال الشاعر:

فألفيتم صوصا لصوصا إذا دجا الظلام وهيابين عند البوارق.

يضرب للأصل الكريم يظهر منه فرع لئيم (الميداني ، 1987، 37).

المثل 03: بقبقة في زقزقة

البقبقة: الصخب، والزقزقة: الضحك

يضرب للنفاج الذي يأتي بالباطل (الميداني ، 1987، 181).

المثل 04: جديدة في لعيبة

هذا تصغير يراد به التكبير ، أي جِد سُتِرَ في لعب ، كما قيل : رب جد جره اللعب (الميداني ، 1987، 303).

المثل 05: إياك أعني واسمعي يا جارة

أول من قال ذلك سهل بن مالك الفزاري، وذلك أنه خرج يريد النعمان ، فمر ببعض أحياء طيء ، فسأل عن سيد الحي ، فقيل له : حارثة بن لأم ، فأما رحله فلم يصبه شاهدا ، فقالت له أخته : انزل في الرحب و السعة ، فنزل فأكرمته ولاطفته ، ثم خرجت من خبائها فرأى أجمل أهل دهرها وأكملهم ، وكانت عقيلة قومها وسيدة نسائها فوقع في نفسه منها شيء، فجعل لا يدري كيف يرسل إليها ولا ما يوافقها من ذلك؟ فجلس بفناء الخباء يوما وهي تسمع كلامه ، فجعل ينشد ويقول :

يا أخت خير البدو والحضارة كيف ترين في فتى فزارة

أصبح يهوى حرة معطارة إياك أعني واسمعي يا جارة

فلما سمعت قوله عرفت أنه إياها يعني ، فقالت : ماهذا بقول ذي عقل أريب ، ولا رأي مصيب ، ولا أنف نجيب فأقم ما أقمت مكرما ، ثم ارتحل متى شئت مسلما ، ويقال أجابته نظما فقالت :

إني أقول يا فتى فزارة لا أبتغي الزوج ولا الدعارة

ولا فراق أهل هذه الجارة فارحل إلى أهلك باستخارة

فاستحيا الفتى وقال : ما أردت منكرا و اسوأتاه؟ قالت : صدقت ، فكأنها استحت من سرعتها إلى تهمته فارتحل فأتى النعمان فحباه وأكرمه ، فلما رجع نزل على أخيها ، فبينا هو مقيم عندهم تطلعت إليه نفسها- وكان جميلا- فأرسلت إليه أن اخطبني إن كان لك إلي حاجة يوما من الدهر، فإني سريعة إلى ما تريد ، فخطبها وتزوجها وسار بها إلى قومه. يضرب لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئا غيره (الميداني ، 1987، 80-81).

5/ الدراسة التطبيقية للأمثال:

المثل 01: إن لله جنودا منها العسل.

هذا المثل - كما أثبتناه في المدونة- قاله معاوية لما سمع أن الأشتر سقي عسلا فيه سم فمات. فهذا مورد المثل ، أما مضربه فهو الشماتة بما يصيب العدو.

يطرح هذا المثل علاقة بين عنصرين أساسيين : الجند والعسل .

- هذه العلاقة إشكالية ، إذ كيف يكون العسل من جنود الله ؟ ثم ما العلاقة بين مورد المثل ، ومعنى الشماتة الذي يُضرب له المثل؟

لفهم العلاقة بين العسل وجنود الله ، ينبغي أن نحيط بالسياق الذي ورد فيه المثل (المورد):

ورد هذا المثل في سياق تعليق معاوية على واقعة موت الأشتر جراء العسل المسموم الذي تجرعه . يمكننا أن نسجل ملاحظة جوهرية تعيننا على ربط العلاقة بين العسل و الجنود ، وهي أن صفة المسموم التي ترد في مورد المثل ، تُحَوِّل معنى العسل إلى معنى جديد يلتقي مع معنى الجندي .

لنشرح الفكرة بصورة أفضل من خلال المداخل المعجمية و الموسوعية لطرق التمثيل: العسل و الجنود.

أ/المدخل المعجمي للفظ العسل:

يُرَشَّحُ العسل في مدخله المعجمي لمعنى المادة النافعة الشافية. يقول « ابن منظور» - مستشهدا بقوله تعالى في سورة محمد: « وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى» (15)-: العسل في الدنيا لعاب النخيل ، وقد جعله الله بلطفه شفاء للناس (ابن منظور ، 2005، 2624- 2625).

يتحول هذا المعنى الإيجابي للعسل : المادة النافعة ، إلى معنى سلبي معاكس تماما ، إذ أضحى شرابا مسموما والسم مرشح في مدخله المعجمي لمعنى : المادة الضارة (التي قد تؤدي إلى الموت)، ومن ثم تحول العسل من خاصيته النافعة إلى خاصية ضارة .

نأتي الآن إلى الطرف الثاني من الصورة التمثيلية : الجنود. يرشح الجندي في مدخله المعجمي لمعنى إيجابي هو الدفاع عن الوطن و الدين ، ولكنه يرشح ضمن المدخل نفسه إلى معنى إيقاع الموت بالعدو، و في هذا الاقتضاء السياقي بالذات يلتقي العسل مع الجندي : اقتضاء إيقاع الموت.

إن التمثل الذهني للعسل بالخاصية الجديدة التي أضيفت إليه : السم ، والتمثل الذهني للجندي القاتل لعدوه صُهِرَا في تمثل ذهني واحد رشح اقتضاء سياقيا أساسيا هو دعامة السياق الناتج وهو : اقتضاء إيقاع الموت .

إن العسل يتحول من خاصيته النافعة إلى خاصية ضارة : إيقاع الموت بعد إضافة السم ، كما يوقع الجند الموت عندما يتضافرون على العدو، ويبدو أن لفظ : « منها » يدعم سياق التضافر لإيقاع الموت ، وإضافة الجند للفظ الجلالة : « الله» يرشح المعنى لدلالة ضمنية هي دلالة الفرح بما يصيب العدو من الجند الذين يصبح العسل منهم (استعاريا).

ب/ المدخل الموسوعي

جاء هذا المثل في سياق التعليق على واقعة الموت. يرشح الموت في المدخل الموسوعي لرد فعل عاطفي يكون عادة الحزن ، ولكن من الواضح أن معاوية يتمثل موت الأشتر تمثلا مغايرا ، يرشح في مدخله الموسوعي لمعنى أو رد فعل عاطفي هو الفرح ببلية العدو : (الشماتة)، ومن ثم فإن تمثل معاوية الذهني لموت الأشتر لا يمكن أن يفهم بمعزل عن رد الفعل العاطفي ، فإدراك واقعة الموت هنا إدراك عاطفي بالدرجة الأولى.

هذا التمثل الذهني العاطفي أثار تمثلا ماديا هو المثل بصيغته المادية : إن لله جنودا منها العسل ، وهذه الصيغة بدورها تثير تمثلات ذهنية مشابهة لتمثل معاوية في كل مضرب للمثل.

ج/ اشتغال المعنى وبناء السياق في هذا المثل

تبدو مساحة اشتغال الضمني في هذا المثل واسعة جدا ، ذلك أن المعنى الصريح المباشر المستفاد من عبارة المثل لا تعيننا إلا بالقدر القليل على التوصل للمعنى، لذلك يصبح المعنى و السياق في هذا المثل عملية بناء ، تنطلق من صريح العبارة إلى واقعة موت الأشتر ، حيث يلتقي طرفا الصورة في اقتضاء سياقي واحد : إيقاع الموت بالعدو وما يثيره من فرح.

د/ سيرورة التمثلات الذهنية والعامة بين مورد المثل ومضربه:

المشبه به : العسل

العسل العسل المسموم إيقاع الموت بالأشتر

التمثل الذهني (أ) التمثل الذهني (أ›) التمثل الذهني(ب)

(مادة نافعة ومؤثرة إيجابيا). مادة ضارة، ومؤثرة سلبيا. الموت غدرا

فرح معاوية بموت الأشتر(تمثل ذهني عاطفي).

المشبه :

الجنود : قتل العدو فرح بقتل العدو (تمثل ذهني ناتج)

تمثل ذهني أ : دفاع عن الوطن.

ذ/ التمثل الذهني والعام الجامع لطرفي الصورة :

الجند / العسل: الفرح بموت العدو

التمثل العام الناتج : إن للّه جنودا منها العسل

التمثل الذهني : الفرح بموت العدو.

هذه السلسلة تتواصل مع كل واقعة موت ، لتكون سلسلة سببية ثقافية تضمن استمرار المثل و إعادة إنتاجه.

الملاءمة البلاغية والأجناسية والسردية :

استوعب هذا المثل كل التمثلات الذهنية والعاطفية التي سبق ذكرها ، وبنى السياق وفق عملية ضبط بين صريح العبارة و الواقعة في عبارة دقيقة مختصرة بأقل لفظ و أقصى أثر.

إن هذا المثل حذف تفاصيل الواقعة ، فلم يذكر مَضْرِبُهُ واقعة موت الأشتر وفرح معاوية بذلك، بل أعاد إنتاج القصة في قالب سردي جديد ، يستوعب كل أطراف الصورة ، ويصهرها في تمثل ذهني واحد ، ولا يحتفظ إلا بسياق واحد يعيد بناؤه ، وهو سياق ذهني عاطفي دعامته مفهوم الفرح المتلبس بالشماتة (لأنه فرح بموت العدو).

إن كل التمثلات الذهنية الحاصلة من صورة العسل المسموم ، ومن صورة الجند المقاتلين ، ومن صورة الأشتر المقتول ، ومن صورة الأعداء المقتولين تحذف ، ولا يحتفظ إلا بصورة واحدة هي : صورة الفرح بموت العدو.

وعلى المستمع للمثل أن يقوم بعملية استدلالية ، تبدأ من صريح عبارة المثل إلى سياق واقعة موت الأشتر ، إلى السياق الذي يستشهد فيه بالمثل .

المثل 02: أَصُوصٌ عليها صُوصٌ.

الأصوص : الناقة الحائل السمينة ، والصوص : اللئيم . يضرب للأصل الكريم يظهر منه فرع لئيم.

ينتج هذا المثل فعاليته وملاءمته التمثيلية من العلاقة التي يبنيها بين التمثل الذهني للناقة ، والتمثل الذهني لقِيمَةِ اللؤم.

أ/ المدخل المعجمي والموسوعي

تحيل لفظة الأصوص على مستوى المدخل المعجمي لمعنى الناقة السمينة المكتنزة (الكاملة خلقا)، وتحيل لفظة الصوص في مدخلها المعجمي لمعنى اللؤم. فما العلاقة بين الناقة واللؤم؟ ثم ما علاقة كل ذلك بمضرب المثل وهو الأصل الكريم الذي يظهر منه فرع لئيم؟.

يمكن إعادة بناء السياق من خلال الربط بين ما تعنيه لفظة الصوص على المستوى الصريح : الناقة السمينة ، وما تحيل عليه ضمنيا من معاني الأصالة ، حيث ينصهر بعد الاكتمال الجسدي ، مع الاكتمال المعنوي القيمي : الأصالة.

ويتدخل في هذا المستوى المدخل الموسوعي ليوجه دلالات الناقة في ظل الثقافة العربية إلى دلالات مضاهية لدلالات الإنسان الأصيل الكريم ، وهنا يمكن ربط العلاقة بالقيمة الضديدة التي يرشحها لفظ الصوص : قيمة اللؤم، حيث يعتور هذا الأصل الكريم لؤم.

ب/ بناء المعنى و الصورة التمثيلية

على خلاف المثل الأول الذي يصهر التمثلين الذهنيين الحاصلين من طرفي الصورة : العسل والجنود في تمثل ذهني واحد ، حيث يصبح العسل استعاريا من جنود الله، فإن هذا المثل يوقع على مستوى المضرب تفارقا بين التمثلين الذهنيين للصوص و الأصوص . سنشرح هذه الفكرة من خلال الوقوف على التمثلات الذهنية لكل من الصوص والأصوص.

الأصوص

المدخل المعجمي : ناقة سمينة مكتنزة، ذات أصل كريم.

المدخل الموسوعي : تحيل على معاني الكرامة والأصالة المضاهية لأصالة الإنسان.

التمثل الذهني الناتج : الأصل الكريم (المستعار هنا للإنسان).

الصوص

المدخل المعجمي : الإنسان اللئيم.

المدخل الموسوعي : اللؤم ينتج الوضاعة و الخساسة.

التمثل الذهني الناتج: الأصل الوضيع للإنسان.

من الواضح أن التمثلين الذهنيين الناتجين عن طرفي المثل متضادين تماما، و هذا التضاد يدعم فرضية أولى نبنيها لفهم السياق و المعنى ، وهو أن أحدهما مناوئ للآخر ، وهادم له، و بالفعل فإن الأصل الوضيع هادم للأصل الكريم، وتأتي عبارة : «عليها» لدعم هذه الفرضية ، حيث تحيل على معنى بروز عنصر جديد مفارق للأصوص ولكنه منها ، لأن مضرب المثل يفيدنا أن هذا المثل يضرب للفرع اللئيم الذي يظهر منه الأصل الكريم ، لذلك استخدمت لفطة : «عليها» للإحالة على حلول في المكان نفسه وهو هنا جسد الناقة.

يمكن أن نرسم التمثل الذهني الناتج عن ربط الأصوص بالصوص بحرف «على » كما يلي :

أصوص مدخل معجمي : على : حرف محيل على الظرفية المكانية صوص.

مدخل موسوعي: كل شيء كان (على) شيء آخر أصبح جزءا منه.

تمثل ذهني ناتج : الصوص جزء من الأصوص : ظهور الفرع اللئيم من الأصل الكريم.

يمكن إعادة بناء التمثلات الذهنية و العامة كما يلي :

الأصوص :

تمثل ذهني 01 : ناقة سمينة. تمثل ذهني 02: أصل كريم . تمثل ذهني 03 مثرى بمدخل موسوعي : الأصل الكريم للناقة مستعار للأصل الكريم للإنسان تمثل ذهني04: الأصل الكريم للموجودات.

الصوص :

تمثل ذهني 01: اللؤم : الأصل الوضيع.

تمثل ذهني ناتج : فرع لئيم من أصل كريم.

تمثل مادي: أصوص عليها صوص.

إن التمويه الذي تصنعه الصياغة اللفظية ، ويثيره التشابه الكبير بين لفظي أصوص عليها صوص ، يبدأ في التهاوي شيئا فشيئا، حيث تبدأ صورة الاكتمال الجسدي الذي تحيل عليه لفظة : أصوص في التناقص بدءا من الألف الغائبة في لفظة الصوص . هذا الغياب يتماهى مع صورة النقص الذي يعتور الكمال، الذي يحاكيه كمال الحركات بين الفتح والضم في لفظ : أَصُوصٌ، ويلتقي مع الصورة المعنوية للفرع اللئيم الذي يظهر في الأصل الكريم.

ج/ بناء المعنى و السياق:

على عكس المثل الأول ، يبنى المعنى هنا من خلال ضبط متبادل بين المعاني الصريحة والضمنية لطرفي التمثيل ، دون استدعاء واقعة مخصوصة (مورد المثل).

د/ الملاءمة البلاغية والأجناسية:

تتجلى ملاءمة هذا المثل بقوة على المستوى الصوتي ، حيث تدعم الصيغة فرضية التشابه بين الصوص والأصوص (تمويها)، ثم تهدم هذه الفرضية بإيقاع تضاد تام بين التمثلين، ويختزل هذا المثل مسيرة سردية طويلة عن ظهور الفرع اللئيم من الأصل الكريم ، ويبرز لنا صورة المفارقة الحاصلة.

المثل 03: بَقْبَقَةٌ في زَقْزَقَة.

البقبقة : الصخب.

الزقزقة : الضحك.

يضرب هذا المثل للنفاج أي الشخص الذي يكون ذا فخر و كبر ، أو يفخر بما ليس عنده ، يأتي بالباطل.

اشتغل هذا المثل بدءا من صيغته الصوتية ، وصولا إلى مآله ومضربه ، وفق مبدأ دعم مفاهيم وتمثلات تصب في صورة المبالغة والامتلاء الفارغ.

أ/ على مستوى المدخل المعجمي

الصيغة الصوتية

إن حرفي الباء والقاف المتكررين في لفظ : بقبقة ، وحرفي الزاي والقاف المتكررين في لفظ : زقزقة، يدعمان حركة الارتفاع المتصاعدة والمتكررة في الصخب والضحك : (هاهاها).

التركيب

ثم إن حلول البقبقة في الزقزقة (باستعمال حرف : في)، يدعم هذه الحركة ، ويقدم لنا صورة قوية ،

وتمثلا ذهنيا قويا لأصوات عالية صاخبة.

ولكن فيما تلتقي صورة الأصوات العالية الصاخبة (مورد المثل)، مع صورة الرجل النفاج بالباطل (مضرب المثل)؟

إنهما يلتقيان في اقتضاء سياقي واحد هو : حركة الارتفاع التي تنتهي إلى التلاشي والفراغ، فكما أن الضحك والصخب على الرغم من كل تلك الحركة المتعالية القوية ينتهيان إلى لا شيء : خفوت وصمت، فإن الرجل النفاج يتعالى ويرتفع بفخره ولكنه ينتهي إلى لا شيء ، لأن كلامه باطل. و من الواضح أن المورد والمضرب يلتقيان في هذا التحول من الارتفاع والعلو إلى التلاشي ، إنهما يلتقيان في: صورة الامتلاء الفارغ. لقد برع هذا المثل في تقديم هذه الصورة بدءا من الصياغة الصوتية وصولا إلى المعاني الضمنية القوية في مضرب المثل.

المثل 04: جُدَيْدَةٌ في لُعَيْبَة

على منوال المثل السابق ، يصوغ هذا المثل صورة تداخل بين حدود المفاهيم ، بين الجد و اللعب، ولكنه على خلاف الأمثال السابقة ، يقدم لنا معناه في المستوى الصريح : جد في لعب. فأين ضرب المثل هنا ؟

هذا المثل يقدم لنا معناه في المستوى الصريح ، ولكنه يفتح على قراءات ومعاني ضمنية، فالجد يحيل على مستوى المدخل الموسوعي إلى الأقوال والأفعال الخاضعة لنمط من المعرفة الصارمة المنظمة القوية.

إن سياق الجد سياق مقنن مسيج بتمثلات ومفاهيم بعينها ، تخالف تمثلات ومفاهيم أخرى بعينها تقال في سياق اللعب، فسياق اللعب سياق حر، مفتوح على تمثلات ومفاهيم لا تضبط بضوابط ، لذلك قد يستوعب سياق اللعب سياق الجد ، ومن ثم يحدث خرق سياق لسياق. فهذا مستوى من مستويات المعاني الضمنية التي يمكن أن يحيل عليها هذا المثل ، وهو مفتوح على مستويات أخرى من المعاني الضمنية قد تكون:

1/دعم فكرة و مفهوم التداخل والخرق بما يسمح به من تحرر من سياق الجد الصارم.

2/ أو على العكس إبطال هذا المفهوم بما يكشف عنه اللعب من أشياء جادة لا يجب الكشف عنها.

وقد يكون المعنى الأول مرشحا في سياقات بعينها ، والمعنى الضمني الثاني مرشحا في سياقات أخرى من مضرب المثل ، ومن ثم يعيد المثل إنتاج فعالية المعنى في أبعاد تداولية جديدة.

المثل 05: إياك أعني واسمعي يا جارة.

كما تداخل الضحك مع الجد ، والبقبقة مع الزقزقة ، والأصوص والصوص ، والجند والعسل، يتداخل صوت المخاطب المعني بالخطاب(المحبوبة في مورد المثل) مع صوت المخاطب غير المعني بالخطاب(الجارة في مورد المثل).

أ/ المدخل المعجمي

يوجه الملفوظ الأول: «إياك أعني» المعنى إلى

أن المقصود بالخطاب هو المرأة أخت النعمان ، ومن ثم يقدم إشارة أولى ملائمة ، وهي أن أخت النعمان بوصفها المقصودة من الكلام معنية بالاستماع إليه، ولكن الملفوظ الثاني: «اسمعي يا جارة «، يخرق التوقعات التي وجهتنا إليها الإشارات المستفادة من الملفوظ الأول ، بحيث عدل إلى مستمع آخر هو الجارة. فكيف نوائم بين فكرة أن يوجه الخطاب لشخص ، ويسمعه شخص آخر؟

إن افتراضا يعيننا عليه المدخل الموسوعي للتخاطب (وبخاصة بين الرجل والمرأة) في ظل البيئة العربية يفك هذا التعارض . و هو أن الرجل وبخاصة إذا كان عاشقا خائفا من ردة فعل محبوبته – كما يفيدنا به سياق المورد – قد يعرض و لا يصرح ، فيقول كلاما يعني به محبوبته ، ولكنه يدعي أنه موجه لغيرها(الجارة مثلا كما ورد في مورد المثل). وهذا السياق (سياق المورد) قد يتوسع ليشمل كل من يتكلم بكلام ويريد به شيئا آخر. و مبدأ توسيع السياقات و إعادة إنتاجها ، مبدأ يشتغل المثل به بقوة.

خاتمـــــة

خلصت هذه القراءة للنتائج التالية

تحقق الأمثال مبدأ الملاءمة على المستوى البلاغي والسردي و الأجناسي و التداولي الثقافي.

1. فعلى المستوى البلاغي يقدم المثل معرفة عميقة جليلة الأثر ، بعبارة قصيرة ، وبآثار سياقية قوية ، حيث يعاد إنتاج سياقات ثرية وفق قراءة المثل للوقائع.

2. وعلى المستوى السردي تقدم الأمثال قراءة سردية تعيد من خلالها إنتاج السرد، وفق مبدأ إبراز الوقائع والفرضيات في شكل التمثلات الأكثر ملاءمة.

3. و على المستوى الأجناسي يشكل المثل جنسا سرديا مضاهيا للحكاية والقصة وكل شعوب الحديث ، حيث يمكنه إعادة تشكيل هذه الأجناس في عبارة قصيرة تضاهيها في أثرها .

4. و على المستوى التداولي الثقافي يقوم المثل على إعادة إنتاج السياقات في شكل سلسلة سببية ثقافية تتوالد من خلالها التمثلات الذهنية والتمثلات العامة.

المصـــادر والمراجـــع

المراجع العربيه

ابن عبد ربه، 1982 م ، العقد الفريد ، ج03 ، دار الكتاب العربي ، د. ط.

ابـن منظـور ، أبـو الفضـل أحمـد بـن محمـد بـن أحمـد بـن إبراهيـم،(1427ه- (2005، لسـان العـرب،ج03 الـدار المتوسـطية للنشـر والتوزيـع ، ط01.

أبو هلال العسكري، (1310ه)، جمهرة الأمثال (بهامش مجمع الأمثال للميداني) ، ج01، الطبعة الخيرية ، د. ط.

السيوطي، المزهر في علوم الأدب وأنواعها ، ج 01 ، دار إحياء الكتب العربية ، د. ط.

الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، (1407ه- 1987م)، مجمع الأمثال ، ج01 دار الجيل ، ط02 .

بورايو، عبد الحميد ، (2007م) ، الأدب الشعبي الجزائري ، دار القصبة للنشر.

روبول ، آن ، موشلار، جاك ، (2003م) ، التداولية اليوم ، علم جديد في التواصل ، ترجمة: سيف الدين دغفوس ، محمد الشيباني ، مراجعة : لطيف زيتوني ، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة و النشر ، ط01.

مصطفى ، فاروق أحمد ، العشماوي، مرفت ، دراسات في التراث الشعبي ، دار المعرفة الجامعية.

المراجع الأجنبية

Sperber.Dan, Wilson. Deidre , (1989) ,La Pertinence, communication et cognition, les Edi-.tions de minuit

Wilson.Deidre ; Sperber.Dan ,(2004), Ressemblance et communication , in introduction aux .sciences cognitives, Edition Gallimard